الموازنة

بين الالعوبة الالهية ورسالة الغفران

— او —

بين ابي العلاء المعري ودانتي شاعر الطليان

أجمع المؤرخون على ان مولد ابي العلاء المعري كان سنة ٣٦٣ هجرية وكانت وفاته سنة ٤٤٩ اي سنة ١٠٥٧ مسيحية ومنزلته من علوم اللغة والصناعة الشعرية فوق ان تحتاج الى بيان ، ومكانه بين امراء الكلام فوق ان يعزز ببرهان وكان له وقوف على سائر علوم عصره ولا سيما العلوم الفلسفية والدينية والهيئة ، اما ذكاؤه وحفظه فما يُعدّ من خوارق الآيات بل من المعجزات ، ولولا ما لدينا من كتبه وشعره ، مع ثبوت فقده البصر منذ الرابعة من عمره ، لكان ما نقل الينا من ذلك الى التكذيب اقرب منه الى التصديق . بيد ان من كان يحفظ ذلك المقدار الجزيل من شتات اللغة والشعر والعلوم ، ويتكلم بما تكلم به نثراً ونظماً ، ويخوض في موضوعات سائر أحوال عصره وعلومه ، لحقيق بان يُصدّق ما نقل الينا عنه ، فمن ذلك انه كان قاعداً يوماً في دكان يهودي ببغداد واتفق ان جاء خصم له وتكلما بالعبرانية ، ثم مرت على ذلك ايام تحاكما بعدها الى القاضي فقال للمدعي هل عندك شاهدان على ما تقاله ، فقال عندي رجل يهودي وثانٍ مسلم اعمى ، فأحضرهما القاضي ولما سأل ابو العلاء شهادته قال اني اعرف احدهما بصوته ولعلي أعرف الثاني ايضاً بصوته ، وهما قد تكلما في حضوري بالعبرانية ولم أفهم منهما شيئاً ولكني أحفظ ما قالاه او ما قاله احدهما ، وأعاد العبارة بالعبرية وهو لا يفهم ما يقول ، وكان في شهادته ربح الدعوى ، انقلها باختصار .

ومما اشتهر عنه انه اذ كان في بغداد سنة ٣٩٩ أنشده احد الشعراء قصيدة — ولعله ابو الخطّاب الجبلي — قال ابن الاثير في الكامل في حوادث سنة تسع وثلاثين واربعمائة وفيها مات ابو الخطاب الجبلي الشاعر ومضى الى الشام ولقي المعري وعاد فصريراً ومن شعره :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(ما حكمُ الحبِّ فهو ممتثلُ وما جنـاه الحبيب محتملُ)
(تهوى وتشكو الضنى وكل هوىً لا ينحل الجسم فهو منتحَلُ)

فلما اتى على آخر القصيدة قال له انت أشعر من بالعراق ، ثم عاد ابو العلاء الى الشام ولزم بيته في معرة النعمان ، وبعد خمس عشرة سنة من ذلك التاريخ جاءه شاعر فأنشده قصيدة ولم يذكر اسمه له ، فلما اتى على آخرها قال ابو العلاء : ومَن بالشام ، فعجب الشاعر من فطنته وحذقه ، وسئل ما معنى ما قال لك فذكر للسامعين حكايته معه في بغداد وقوله له انت أشعر مَن بالعراق وانه عرفه الآن بنفسه فعطف على عبارته تلك بقوله ومَن بالشام .

وأمثال هذه الروايات عن ابي العلاء كثيرة ولم أرد بذكر ما أوردته منها اثبات المنقول اونفيه ، فلذلك مقام آخر ، وانما أوردت ذلك تمهيداً لما سيأتي في هذه الموازنة .

وانت تعلم انه قلما نبغ شاعر في فنون المنظوم ، او جاء عالم برأي جديد في علم من العلوم ، الا وقام له من الخصوم والحساد ، او المساجلين والنقّاد ، قوم تدفعهم غرائزهم للتعريض به والطعن عليه ، وقد يكون بينهم أفراد لا غرض لهم الا تمحيص الحقائق ، وقليل ماهم ، هذا شأن البشر في كل عصر ، ولاسيما في تلك القرون السحيقة ، يوم كانت الأديان في الشرق والغرب تجارة يتزلف بها العلماء الى مستبدي الحكام والامراء ، بعضهم للتمسك بالزمق ، وبعضهم للتكسب كيفما اتفق ، وآلة قاطعة في ايدي الملوك والحكام توصلاً لمطامعهم السياسية وأهوائهم النفسانية ، ولهذا لم يكن بدّ للفلاسفة والعلماء من إلباس مايكتبون في اي علم غير علوم الدين ، ثوباً من التدين والورع ليأمنوا غائلة عدو يقدح او حسود يشي بهم و ينم .

فاذا علم هذا فلننظر اولاً نظرة ناقد في رسالة الغفران هذه ، ففي بدء ما ينعى عليها طولها ، وهي رسالة من صديق الى صديقه ، و يُعتذر عن ذلك ان رسائلهم لذلك العهد كانت طويلةً لعسر وسائل النقل وبُعد المسافات ، معما كانت عليه حالة الطرق في تلك العصور من فقد الأمن ، ولم تكن البُرُد الا لحاجات الحكومات ، فاذا ما همّ القريب او الصديق بالمكاتبة ، لم يكن له بدّ من البحث عن مسافر امين يودع بين يديه رسالته ، وهذا لم يكن ميسوراً . ولذلك كانت رسائلهم طويلة ، الا ان المسافة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بين معرة النعمان وحلب ليست إلا ساعات على القافلة ، فلا ينطبق عليها ما ينطبق على الرسائل التي تقتضي خوض البحار وقطع المسافات الشاسعة في الصحاري والقفار . ثم ان هذه وان كانت جواباً عن رسالة وردت ابا العلاء من صديقه ابن القارح ، فلم تكن رسالة اخوانية ، اذ طولها وما فيها من الأغراض التي لا احسب المعري الا قصد لها وتوخاها ، يخرجها عن الاخوانيات ، و ينزلها منزلة معجم لغو يص كلام العرب وغريب أشعارهم في ظاهرها ، وانما هي في الحقيقة مفاكهة بين صديقين في الاعتقاد متبادلين ، ولا أحسب الشيخ ابن القارح الا على مذهب الفلاسفة الزنادقة ، وسيأتيك الدليل فيما يجيء . اما ابو العلاء فقد كان فيلسوفاً قولاً وفعلاً ، أقول فعلاً لانه لم يكن بين فلاسفة العرب كلهم من طابق بين قوله وفعله سواه . فهذا الرئيس ابن سينا على فضله ورسوخ قدمه في العلوم الفلسفية ، كان نهماً شديد الشبق ، وكان هو ووالده يتقلدان الأعمال للسلطان في الدولة السامانية ، وقيل انه مات بالسجن . وقال فيه كمال الدين ابن يونس :

(رأيت ابن سينا بعادي الرجال وفي السجن مات أخسّ الممات)

(فلم يشف ما ناله بالشفا ولم ينج من موته بالنجاة)

والشفا والنجاة من أشهر كتب الرئيس كما هو معلوم .

اما ابن الصائغ وابو بكر بن طفيل وابو الوليد بن رشد فكلهم ممن اشتغل مع العلم بالسياسة ولم تصرفه الفلسفة عن الرئاسة ، بل ان أكابر فلاسفة اليونان قبلهم ، لم يحصلوا على منزلة المعري العالية . فان ديوجينوس المشهور بالكلبي لتقشفه وزهده في الدنيا ، قد اشتغل في صباه مع ابيه الصراف بالتزوير والتزييف ، ونفي من وطنه بعد التحقير والتعنيف . ورسطاليس نُسب اليه عقوق استاذه أفلاطون ، وأشياء ان صدق راووها الصقت به العار على مرّ القرون ، بل ان أفلاطون نفسه اشتغل بالسياسة وحام حولها ونُسبت اليه أفعال لم يجزم بصحتها ولم يقطع بتكذيبها .

واين من هؤلاء كلهم ابو العلاء فقد اجمع حساده وخصومه على زهده وتنسكه ، وعظ بالعفاف ونهى عن الدنس . ومات وقد جاوز الثمانين ولم يدنس له عرض ، وحرّض على الفضائل ولزمها ، ذم الدنيا وأعرض عنها ، حرّم ذبح الحيوان منذ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاربعين من عمره ، فمكث خمساً واربعين سنة لم يذق لحماً ، سمى نفسه رهين المحبسين لفقده بصره ولزومه منزله فمكث اثنتين وخمسين سنة بعد عودته من بغداد في بيته .

وهو لم يكن يعتقد بدين من الاديان ، لا كما تحمل له اصحابه والمتشيعين لفضله ، زعماً منهم ان القول بذلك مما يحط من قدره ، وقد علموا ان جل فلاسفة اليونان والرومان وغيرهم من الامم الخالية لم يكونوا على دين . وان منهم من كان على الوثنية والمجوسية لم يقدح ذلك في علمهم ، بيد ان عصور المتشيعين للمعري لم يكن يباح فيها لعالم ان يعالن بمدح زنديق وان بلغ من العلم والفضيلة ما بلغه المعري ، ولم يكن اولئك المتشيعون بالعدد القليل منذ كان حياً . فقد بلغ مرتبة من تجلة الناس ووقارهم لم يروها تاريخ من تواريخ الارض كلها عن عالم اوفيلسوف او ملك . فقد روى الحافظ السلفي قال جلس على قبر ابي العلاء المعري عند دفنه نحو من مائة وثمانين شاعراً ورثاه اربعة وثمانون شاعراً منهم فقهاء ومنهم محدثون ومنهم صوفية وترجمهم باسمائهم .

فلابدع بعد ذلك اذا مارأي اولئك الفضلاء وأمثالهم ان يتحملوا له صدق الاعتقاد درعاً يتقون بها الوشايات ، ووسيلة يتوسلون بها لنشر مؤلفاته ، ولست التي القول على عواهنه فحسبك من قوله في لزومياته .

(اذا رجع اللبيب الى حجاه تهاون بالمذاهب وازدراها)
(فخذ منها ما أداه لبٌّ ولا يغمسك جهل في صراها)
(وهت اديانهم من كل وجه فهل عقلٌ يُشَدّ به عراها)

وقوله :

(وجاءتنا شرائع كل قوم على اثار شيءٍ رتبوه)
(وغير بعضهم اقوال بعض وابطلت النهى ماأوجبوه)

وقوله :

(هفت النصارى والحنيفةُ ماهتدت ويهودُ حارتْ والمجوسُ مضلّلَه)
(اثنان اهل الارض ذو عقل بلا دينٍ وآخرُ دينّ لا عقلَ له)

وكثير من مثله في كتبه مما لا يحتمل التأويل .

ولست أراه أراد برسالة الغفران الا الانتقاد على ماذكره فيها ، وقد قلتُ قبل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا اني أحسب ابن القارح على مذهبه ، لا لان رسالة الغفران قد كتبت اليه فقط ، بل لانها جواب على رسالته التي لااخالها تضرب الا على هذا الوتر — وان لم يكن ذلك صريحاً — لقول المعري في اوائل رسالته : وقد وصلت الرسالة التي بحرها بالحكم مسجور ، ومن قرأها لاشك مأجور ، اذ كانت تأمر بتقبيل الشرع ، وتعيب من ترك اصلا الى فرع : أفلم يجد ابن القارح من طلبة العلم وغيرهم من محبي العلوم الشرعية في حلب يومئذ جديراً بتعلم الشرع وحدوده سوى ابي العلاء وهو بحر العلوم ، ولاسيما والمفهوم من جواب ابي العلاء انها تتضمن أغراضاً أخرى كثيرة ، وان عنونها بغير ذلك كما ذكر في اول رسالة الغفران .

وعلى الجملة فلا شك عندي انه لم يقصد برسالته تلك الا مذاكرة المعري في معنى كلاهما عليه متفقان واليه قاصدان . وحسبك من ذلك ان رسالة ابن القارح في تقبيل الشرع ، فبدلاً من ان يجيبه المعري عليها بما يتعلق بذلك او بالاعتراض على شيء منها او بشرح ما بمنٌ له في ذلك كله ، تراه يدعو له بالجنة ويحدثه عنها وفيها وفي الجحيم من الغرائب ويقول له « ومثلها شفع ونفع ، وقرّب عند الله ورفع ، والفيتها مفتتحة بتمجيد صدر من بليغ مجيد وفي قدرة ربنا جلّت عظمته ان يجعل كل حرف منها شجج نوّز .. » الى آخر ما ذكر عن هذه الرسالة مما لا أراه فيها هازلاً منتقداً لا جاداً معتقداً وحسبك قوله « وانما أذكرها لانه قد يجوز ان يقرأ هذا الهذيان ناشئ لم يبلغه ذلك » .

واما ظاهر مافيها من ألفاظ النقوى ، فليس بحجة على نفي ما أقول واليك عبارته عن المتنبي : واذا رُجع الى الحقائق فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الانسان لان العالم مجبول على الكذب والنفاق و يحتمل ان يظهر الرجل تديناً وانما يجعل ذلك تزيناً الى آخر ذلك .

ولم يكن ابو العلاء ممن يحسب لفظ الزنديق شتماً او تحقيراً وانما هو وصف يراد به ان الموصوف بهذا اللفظ لا يدين بمذهب من المذاهب ، وهو المعبر عنه في كتب اللغة ، وقد وصف به كثيرين ممن ذكرهم في رسالة الغفران ، لاتحقيراً بل بياناً وتمييزاً .

واما اختياره تسمية هذه الرسالة برسالة الغفران ، فلا أدري أهو الذي اسماها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ام ابن القارح ام سواه ، والارجح ان يكون هو المسمي ولعله استحب لها اسم الغفران لطلاوة وقعه في الآذان وقد أراد به التفاؤل لصاحبه بالغفران أسوة بمن ذكرهم من الزنادقة والملاحدة والكفار ، الذين سيراهم في الجنة راتعين وقد نجوا من عذاب النار ، وغفر الله لهم لكلمة خير قالوها ، او بيت فيه وصية صالحة ، يريد ان كتاب ابن القارح « في تقيّل الشرع » وذم من ترك الوقوف عند حدوده ، سيكون سبب الغفران له ودخوله الجنة كغيره من الزنادقة ، وهو برهان لما ذكرناه من ان ابن القارح ايضاً كان من الزنادقة ، وان كتابه لا ينبئ عن اعتقاده ، وان ابا العلاء رام ممازحته في مضمون الكلام والثناء عليه في ظاهره ، ولعل تصدي ابن القارح لتأليف تلك الرسالة في تقيل الشرع اي لزوم حدوده ، مما كان عليه من الزندقة التي كان يبوح بها لابي العلاء في خلواتهما ، هو الذي وحى اليه موضوع رسالة الغفران وابتكاره ، فكان آية في الهزل صوّره الجد ، وثوب تقريظ سداه الفضل ولحمته الحمد .

وقد آن لي ان أذكر جملاً منها توضح لك غرضه في الانتقاد طي ثوب الاعتقاد وهزلاً يضحك الثاكل والمتفجع ، ويشغل عن الراضع المرضع ، وتمويلاً ترتعش له المفاصل ، وترتعد منه الخصائل ، في بيان بعجز المصور عن تصويره بعد دقيق اللحظ ، بابدع وصف وابرع لفظ ، وقائله لم ير نوراً ولا تصويراً ، منذ كان طفلاً صغيراً .

« الطواف في الجنة »

قال بعد وصف خمور الجنة : فأما الانهار الخمرية فتلعب فيها اسماك هي على صور السمك بحرية ونهرية ، وما يسكن منه في العيون النبعية ، ويظفر بضروب النبت المرعية ، الا انه من الذهب والفضة وصنوف الجواهر ، المقابلة بالنور الباهر ، فاذا مدّ المؤمن يده الى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذباً لو وقعت منه الجرعة في البحر الذي لا يستطيع ماءه الشارب ، لحلت منه أسافل وغوارب ... وكأني به ادام الله الجمال ببقائه اذا استحق تلك الرتبة ببقين التوبة ، وقد اصطفى له ندامى من ادباء الفردوس ، كأخي ثمالة واخي دوس ، ويونس بن حبيب الضبي ... وهو ايد الله العلم بحيائه معهم كما قال البكري :

(نازعتهم قضب الريحان مرتفقاً وقهوةً مزةً راووقها خضل)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وابو عبيدة يذكرهم بوقائع العرب ... وتهش نفوسهم للعب فيقذفون تلك الآنية في أنهار الرحيق ....

ثم يرينا الشيخ علي بن منصور وهو ابن القارح نفسه يتنقل في أمصار الجنة فيسأل حميد بن ثور : وهو الذي يقول :

(ارى بصري قد رابني بعد صحة وحسبك داءً أن تصح وتسلما)

كيف بصرك اليوم فيقول اني لا كون في مغارب الجنة فألمح الصديق من اصدقائي وهو بمشارقها وبيني وبينه مسيرة الوف أعوام للشمس التي عرفت سرعة مسيرها في العاجلة ... ثم يخطر له حديث شيء يسمى النزهة في الدار الفانية فيركب نجيباً من نجب الجنة خلق من ياقوت ودرّ ، في سجسج بعد عن الحرّ والقرّ ... ثم يصنع مأدبة في الجنان يجمع فيها ما أمكن من الشعراء و بعدد مافيها من ضروب الماعون المسجدية ، والحون الذهبية ، والفواثير [1] من اللجين والصحاف العجيبة والأقداح والكؤوس ذوات التصاوير والأباريق والزجاجات ، والبواطي والطاسات ، من أشكال الجواهر وأنواع الأطعمة وأجناس الطير والحيوان ، وكل طهاة حلب منذ عمرت الى ما بعد البعث ، وجميع المغنين والمغنيات ، تخدم بين ايديهم حوارٍ من الحور العين ، وغلمان كأنهم اللؤلؤ المكنون ، و ينشيء الله بحكمته شجرة جوز تنفض عدداً لا يحصيه الا الله تنشق كل جوزة عن اربع جوارٍ يرقصن على أبيات الخليل فتهتز ارجاء الجنة ... ثم يرى بين من يخاطبهم من الشعراء عُبيداً فيقول : السلام عليك يا اخا بني اسد فيقول وعليك السلام . واهل الجنة أذكياء ، لا يخالطهم الاغبياء ، لعلك تريد ان تسألني بمَ غُفر لي ... ثم يساجل الشعراء و يحضر مهاترتهم وتشاتمهم و يفترق اهل ذلك المجلس بعد ان اقاموا فيه كعمر الدنيا اضعافاً كثيرة .

ومن هزله فيها وبينما هو (اي الشيخ علي القارح) يطوف في رياض الجنة لقيه خمسة نفر فيقول ما رأيت أحسن من عيونكم من اهل الجنان فمن انتم خلد عليكم النعيم فيقولون نحن عوران قيس ...

(١) خوان الطعام او الموائد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن هذا الباب طلب رضوان جواز منه ليدخله الجنة ونظمه قصيدة الى آخر هذه الحكاية البديعة .

وابدع من ذلك واغرب قصصه على لسان ابن القارح كيف حُشر وحوسب الى ان يقول : فلما خلصت من تلك الطموش [1] قيل هذا الصراط فاعبر عليه ، فوجدته خالياً لاعريب [2] عنده ، فبلوت [3] نفسي في العبور ، فوجدني لا استمسك فقالت الزهراء صلى الله عليها لجارية من جوار يها يافلانة اجيزيه فجعلت تمارسني [4] وانا أتساقط عن يمين وشمال فقلت ياهذه ان اردتِ سلامتي فاستعملي معي قول القائل :

(ستْرٌ ان اعياكِ امري فاحمليني زَقفونَهْ)

فقالت وما زَقفونه ؟ قلتُ ان يطرح الانسان يديه على كتفي الآخر ويمسك بيديه ، يحمله وبطنه الى ظهره ، اما سمعتِ قول الحجحجلول من كفر طاب ؟

صلحت حالتي الى الخلفِ حتى صرت امشي الى الورى زقفونهْ

فقالت ما سمعت بزقفونه ولا كفرطاب الا الساعة ، فتحملني وتجوز كالبرق الى آخر ما ذكر ؟ . ومن هذا الباب ايضاً عربدة نابغة بني جعدة والاعشى ومنها : وَثَب نابغة بني جعدة على ابي بصير فيضربه بكوزٍ من ذهب فيقول اصلح الله به وعلى يديه لا عربدة في الجنان انما يعرف ذلك في الدار الفانية بين السَّفِلَة والحجاج وانك يا ابا ليلى لمُتَسَرِّع [5] .

ومن بدائع مفاكهاته : فيأخذ سفرجلةً او رمانة او تفاحة او ما شاء الله من الثمار فيكسرها فتخرج منها جارية حوراء عيناء تبرق لحسنها حور يات الجنان فتقول من انت ياعبد الله ؟ فيقول انا فلان ابن فلان : فتقول اني أُمنَّى بلقائك قبل ان يخلق الله الدنيا باربعة آلاف سنة ... ويخطر في نفسه وهو ساجد ان تلك الجارية على حسنها ضاوية [6] فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورائها ردف يضاهي كثبان عالج ، وانقاء الدهنا ، ورملة يبرين و بني سعد [7] ، فيهال من قدرة الله اللطيف الخبير .

(١) البلايا والمصاعب . (٢) اي لا احد . (٣) جربت . (٤) تلاعبني . (٥) متسرع الى الشر . (٦) نحيفة . (٧) اسماء تلال من الرمل كالجبال الصغيرة مشهورة عند العرب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

و يقول يا رازق المشرقة سناها ، ومبلغ السائلة منـاها ، والذي فعل ما اعجز وهال ، ودعا الى الحلم الجهّال ، اسألك ان تقصر بؤسَ[1] هذه الحورية على ميل في ميل ، فقد جازَ بها قدرُك حدّ التأميل . . . (ستأتي البقية)

القاهرة : فـطاكي الحمصي
عضو المجمع العلمي العربي